﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النساء: 107]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النهيُ عن المحاجةِ عمَّنْ تعمَّدَ الخيانةَ

لمَّا نهى الله تعالى عن الخصام لأيِّ خائنٍ، وهو مَنْ وقعتْ منه خيانةٌ ما؛ أتبعهَ النَّهيَ عن المجادلةِ عمَّن تعمَّدَ الخيانةَ؛ ليكونَ على سبيلِ التَّرقِّي في النَّهي.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلۡ﴾: الجَدَلُ: مصدرُ جدلتُ الحَبلَ أجدِلُه وأجدُلُه؛ إذا فتلتُه، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ أصلَه منَ المُصارعةِ والإلقاءِ على الجَدَالَةِ، وهي الأرضُ، فكأنَّ كُلًّا منهما يريد أنْ يصرعَ صاحبَه، والاسمُ: الجَدَلُ، والجدالُ: هو المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ وشدَّةٍ في الخصومةِ، ففيه قوَّةٌ واستحكامٌ وامتدادٌ في الخِصام والكلام[1]، ومعنى ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ في الآية: لَا تُحَاجِجْ عَنِ الَّذِينَ يختانونَ أَنْفُسَهُمْ.

2) ﴿يَخۡتَانُونَ﴾: الاختيانُ: افتعالٌ من الخيانة، جذرُه اللُّغويُّ: (خون)، وأصلُ معنى الخيانة: التَّنَقُّصُ في خفيةٍ أو لطفٍ، يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وَذَلِكَ نُقْصَانُ الوَفَاءِ، ولأنَّ الخيانةَ نقصٌ في الأمانةِ أطلقت على مخالفةِ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، بتحرُّكِ شهوةِ الإنسانِ لِتحرِّي الخيانةِ في خفيةٍ، وخانَه في كذا: أُؤْتُمِنَ فلمْ ينصَحْ، ومعنى ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾: يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخيانةِ[2].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خون).

3) ﴿يُحِبُّ﴾: الحُبُّ: نقيضُ البُغض، ويدور معنى الكلمةِ على تجمُّعِ الشَّيء وتمكُّنِه وتلازُمِه، والحبُّ: هو تعلُّقُ القلبِ بالمحبوبِ، وملازَمَتُه إيَّاه ماديًّا أو روحيًّا، ومحبَّةُ اللهِ للعبدِ: هي توفيقُه للإيمانِ ولِقربِه منه تعالى وإثابتُه على الطَّاعاتِ، وثناؤُه عليه، أو يُقالُ: محبَّةُ اللهِ للعبدِ: هي شأنٌ من شؤونِه سبحانَه تليقُ بذاتِه الكريمةِ، وهي تتضمَّنُ معنى الرِّضوانِ، وتستلزمُ فيضَ رحمتِه، ومِنَحَ غُفرانِه[1].

4) ﴿خَوَّانًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ من خائنٍ، وجذره اللُّغويُّ: (خون)، ومعنى الخوَّان في الآيةِ: المُبالِغُ في الخيانةِ الَّذي يُصرُّ عليها.

5) ﴿أَثِيمًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ، من آثِم، وأصلُ معناه: البُطءُ والتَّأخُّرُ، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أَيْ: متأخِّرةٌ لحملِها الثَّقيل، والإثمُ الذَّنبُ، وهو مشتقٌّ منْ ذلكَ؛ لأَنَّ ذَا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأَخِّرٌ عنهُ، وكأنَّ الذُّنوبَ الَّتي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، وقد أَثِمَ الرَّجلُ بالكسرِ إثمًا ومَأْثَمًا؛ إذا وقعَ في الإثمِ، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ، والأثيمُ: هو المنهمكُ في الذُّنوبِ، ولا يقلعُ عنها[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

في هذه الآيةِ، نهى اللهُ تعالى عنِ المُجادَلةِ والدِّفاعِ عنِ الَّذين يخونون أنفسَهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه، والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه.

لا يحبُّ اللهُ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

لمَّا كانَت المحاجَّةُ عن الَّذين يخونونَ أنفسهم، لا يُتَرَقَّبُ صُدُورُهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ دلَّ على أنَّ المرادَ بخطابِ النَّهيِ العمومُ، ويدخلُ فيه أصحابُ النَّازلةِ دخولًا أوَّليًّا، لتقريرِ توبيخِهم، وأفادَ الخطابُ

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَنْ يعينُ على الخيانة أو يرغِّبُ فيها

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1843.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم)، والآلوسي، روح المعاني: 5/141.

العمومَ؛ لأنَّ الحقَّ تبارك وتعالى إذا نهَى عن شيءٍ؛ فإنَّه لا يقتضِي أن يكونَ المُخاطَبُ قد ارتكبَ ما يُوجبُ النَّهيَ، وجاء بصيغة الخطابِ للرَّسولِ ﷺ مع أنَّه أكملُ الخلقِ وأعدلُهم؛ لتنبيهِ المؤمنين على وجوبِ الاحتراس؛ حتَّى لا يقعوا في الدِّفاعِ عنِ الآثمين الخاطئين، وللمُبَالَغَةِ في التَّحْذيرِ مِنْ هذه الخلَّةِ المَعْهُودَةِ مِنَ الحُكَّام، وفي الآية تهديدٌ شديدٌ لِمَنْ يعينُ على الخيانةِ، أو يرغِّبُ فيها[1].

نكتة تعدية الفعل ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾:

النَّهيُ عن مجادلة المؤمنين من أجلِ الدِّفاعِ عن الخائنين

ورد الفعل (جادل) متعدِّيًا إلى المفعولِ بنفسِه مثل قولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾، ووردَ متعدِّيًا بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، كما في هذه الآية، ونكتة تعديتِه بالحرف: هي أنَّه لمَّا كان الخطاب للمؤمنين، وكان الجدالُ واقعًا بينهم، فيمَن دافعَ عن أبي طعمة، وخاصمَ عنه؛ ضمّن قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ النَّهي عن جدالِ المؤمنين، وعن الدِّفاعِ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم؛ ليكونَ من إيجازِ التَّعبيرِ وتكثيرِ المعنى، والمعنى: لا تخاصمْ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم بالمجادلةِ[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾:

المجادلُ يبالغ في حبكِ الكلامِ لإقناعِ الخصوم

لمَّا كان أصلُ الجدلِ: هو فتلُ الحبلِ وإبرامُه ولَيُّه بغيةَ تقويتِه وإحكامِه ومدِّه؛ استُعيرَ هنا على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ للكلامِ الممتدِّ الَّذي يبالغُ قائلُه في حبكِه لإقناعِ الخصومِ، والجامعُ بين المستعارِ منه والمستعارِ: هو الإحكامُ والامتدادُ.

مناسبة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

الخائنُ مكشوفٌ؛ وإنْ تستَّرَ

عبَّر بالاسم الموصول لبيان أنَّ صلةَ الموصولِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، فالَّذين يختانونَ أنفسَهم، وإن كانوا يتحرُّون خيانَتَهم في خِفيةٍ ولُطفٍ، ولكنَّهم معروفونَ عندهم، فهو مكشوفٌ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57، ورضا، تفسير المنار: 5/325.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/190.

وإن تستَّرَ، ولم يذكرِ اسمَ الخائنِ لاستهجانِ التَّصريحِ باسمِه، كما أنَّ ذكرَ الاسم الموصول مع صلته بيَّن وجهَ النَّهي عن الجدالِ عنهم وسببه، مع ما صاحبَ الكلامَ من إهانتِهم[1].

مناسبة إسناد الفعل إلى الجماعة في قوله: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

الخائِنُ لغيرِه خائنٌ لنفسِه

أُسندَ الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى واو الجماعة، "مع أنَّ الَّذي نزلتْ فيه الآيةُ واحدٌ؛ لوجهَين: أحدهما: للإشعارِ بأنَّ كلَّ من شهدَ للسَّارقِ أو للخائن بالبراءة، أو أعانَه؛ فهو شريكٌ له في الوصفِ والحكم، ليكونَ تهديدًا لمن أعانَه، والثَّاني: أنَّه جمعَ؛ ليتناولَ من نزلت فيه الآيةُ، وكلَّ منْ خانَ خِيانَتَه، والمعنى: فلا تخاصمْ لخائنٍ قطُّ، ولا تُجادلْ عنهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

الخائنُ قدْ خانَ نفسَه مرَّتين

عبَّر بصيغةِ الافتعالِ ﴿يَخْتَانُونَ﴾، والمرادُ (يخونون)؛ لِما تدلُّ عليه صيغةُ الافتعال هنا مِن الإشعارِ باجتهادهم في تحصيلِ الخيانةِ، وطلبِهم لها بمزاولة أسبابها وبتَكلُّفِهم لها من أجلِ تحصيلِها، لمخالفتها للفطرةِ وللطَّبيعة الإنسانيَّة، ولمَّا نسبَ الخيانةَ إلى النَّفسِ؛ ناسبَ التَّعبيرَ بصيغة دالَّةٍ على التَّكلُّف، فإنَّ خيانةَ النَّفسِ أشدُّ، ويتطلَّبُ الأمرُ افتعالًا، فجاء بهذه الصِّيغة؛ لِقَصْدِ المُبَالَغَةِ في الخِيَانَةِ، ولولا أنَّه بيَّتَ النيَّةَ عليها؛ لما خانَ، فالتَّعبيرُ بصيغةِ الافتعالِ يُشعرُ بأنَّ الخيانةَ لا تقعُ إلَّا مكرَّرةً، لأنَّه يَعزمُ عليها أوَّلًا، ثمَّ يفعلُها، فأدنى تلبُّسِه بها أن يكونَ قد خانِ من نفسِه مرَّتين[3].

بلاغة التَّعبير في قولِه: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

الخائنُ لغيرِه خائنٌ لنفسه

لَمَّا كانتِ الخيانةُ تكونُ للآخَر؛ كانت نسبةُ الخيانةِ إلى النَّفسِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم/181 - 182.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/562، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313.

(3) الرضي، شرح الشافية: 1/109، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2610.

عدولًا عن مقتضى الظَّاهر، فيُحتملُ أنْ تكونَ على المجاز؛ إذ جُعلتْ معصيةُ العُصاةِ خيانةً منهم لأنفسِهم، كما جُعلت ظلمًا لها؛ لرجوع وبالِ الخيانةِ وضررِها عليهم بالفضيحةِ في الدُّنيا والعقوبةِ في الآخرةِ، ويحتملُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّهتِ المعصيةُ بالخيانةِ للنَّفسِ بجامعِ الضَّرر، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّه به بصيغة الفعلِ لإفادة الاستمرارِ، فسُلِكَ الكلامُ على طريقةِ الاستعارة مبالغةً في خيانتهم، وإثباتًا لها بالدَّليلِ.

خيانة الواحدِ خيانةٌ للمجتمع

وأيضًا لمَّا كان المؤمنون متَّصلين بالدِّين، وقد يكونُ بينهم اتِّصالٌ بالنَّسبِ، فتكونُ خيانةُ واحدٍ منهم بمنزلةِ خيانة النَّفس، فالمعنى: يخونون بني قومِهم وأهلَ دينِهم؛ لرجوعِ الضَّررِ عليهم جميعًا، وهو يُشبهُ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85] وغيرَ ذلك منَ الآياتِ الَّتي عُبِّرَ بها عنِ المجموعِ بالنَّفسِ[1].

نكتة التَّعبير بالفعل المضارعِ: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

لإفادةِ استمرارِ تجدُّدِ تعمُّدِ الخيانةِ حالًا فحالًا، فمنْ خانَ مرَّةً؛ قد يعودُ، ويخونُ مرّاتٍ كثيرةً.

حسنُ التَّذييلِ في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾:

تضمَّنَت جملةُ التَّذييلِ فوائدَ لغويَّة وبلاغيَّة، هي:

1. أفادت (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ للاهتمامِ بشأنِها والاعتناءِ بها.

2. جاءت (إنَّ) في مقامِ تعليلِ النَّهي عن الجدالِ عن الَّذينَ يختانونَ أنفسَهم، فبعدَ أن أومأت جملةُ الصِّلةِ بوجهِ النَّهي عن المخاصمةِ عنهم؛ جاءت جملةُ التَّذييلِ لبيانِ السَّببِ الأهمِّ والأعمِّ للنَّهي[2].

3. دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِه.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 3/354، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/229، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/393.

4. لمَّا كانَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ دلَّ على تقويةِ الحكمِ بسببِ تكرارِ الإسنادِ وتأكيدِه بما تقوَّى به، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حُبِّه تعالى لِمَن اتَّصفَ بهذين الوصفين القبيحين.

5. أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفينِ.

6. عبَّرَ بـ﴿مَن﴾ الموصولةِ الدَّالَّةِ على العُموم خلافَ (الَّذي) الدَّالَّةِ على التَّنصيصِ في المُوصوليَّةِ[1]؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللهِ لكلِّ خوَّانٍ أثيمٍ، ويندرجُ فيه من نزلَت فيه الآيةُ ومن أعانَهُ اندراجًا أوَّليًّا.

7. أفادَ تعبيرُ: ﴿كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ذمَّ الوصفَين وقبحَهما وذمَّ الاستمرارِ في الاتِّصافِ بهما، وإشعارًا بظهورِ آثارِهما في النَّاسِ.

الخوَّانُ لا يحبُّه اللهُ أبدًا

8. خصَّ صيغتي المبالغة: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الدالَّتين على التَّكثير في الخيانةِ والإثم بالمداومةِ عليهما أو تعظيمِهما لشدَّة قُبحِهما بنفي المحبَّة، معَ أنَّه ﷻ لا يُحبُّ الخائنَ والآثمَ أيضًا بأنْ يقعَ الفعلُ منهما مرَّةً واحدةً، فخصَّ الصيغتين للتَّعريضِ بأصحابِ النَّازلةِ الَّذين نزلَت فيهم هذه الآياتُ، وللإشعارِ بعظيم فعلِهم، وللتَّنبيه على أنَّ من يتحرَّى خيانةً، ولا يستمرُّ عليها بأنْ يأتيَ بها مرَّةً واحدةً، ونحوَ ذلك ممَّا يجيءُ من الخيانةِ بغيرِ قصدٍ أو على غفلةٍ؛ فهو مُعرَّضٌ أنْ يُقلعَ، فيحبُّه اللهُ تعالى، ومتى استمرَّ عليها؛ صارَ مطبوعًا على قلبِه، لا يُقلعُ، أو كانت خيانتُه عظيمةً، فلا تُرجى له المحبَّةُ، فإذًا الخائنُ قد يكونُ محبوبًا على وجهٍ، والخوَّانُ لا يكونُ محبوبًا أبدًا[2].

9. كما دلَّ التَّعبيرُ بصيغتي المبالغةِ ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ على أنَّ مراتبَ المبالغةِ في الخيانةِ والإثمِ متفاوتةٌ[3].

10. متى وقعَ الذَّمُّ على وصفٍ؛ لزمَ أن يكونَ المدحُ في ضدِّه؛

(1) الأزهري، شرح التصريح: 1/163.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1428، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/394.

مــدحُ الأمـانـةِ والتَّرغيبُ فيها

فدلَّ على مدحِ الأمانةِ والتَّرغيبِ فيها، وأَنَّ اللَّهَ يحبُّ أهلَ الأمانةِ والاستقامةِ[1].

الخيانةُ سببٌ لحصولِ الإثمِ

11. قدَّمَ الخوَّانَ على الأثيمِ؛ لأنَّ فيه دفعًا للضُّرِّ عنِ البريءِ، وجلبًا للنَّفعِ إليه؛ ولأنَّ الخيانةَ سببٌ لحصولِ الإثمِ، ومراعاةً للفاصلةِ القرآنيَّةِ، كما أنَّ صيغةَ (فَعَّال) أكثرُ مبالغةً من (فَعِيل)، فقدَّم الأشدَّ[2].

12. في جملةِ التَّذييلِ بديعُ تشابُهِ الأطرافِ، فناسبَ ذكرَ الخوَّانِ والأثيمِ لِمَا تقدَّمَ في الآيةِ في قولِه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، فلمَّا أرادَ أن يُخبرَ عن حالِهم؛ ختمَ الكلامَ بما يُناسبُ ابتداءَه في المعنى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/325.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/313، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/58.

(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/352، والسبكي، عروس الأفراح: 2/234.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»